

الغفلة والغافلين.. علاجه الإيمان بالله تعالى



إحدى الأمراض الروحية التي يتعرض لها الإنسان في حياته هي الغفلة عن الله تعالى وتبارك وهي من الأمراض الخطيرة التي تهلك الإنسان في دنياه وآخرته، وبغض النظر عن إنها (الغفلة) من الموبقات فهي من المهلكات ومن كبائر الذنوب أيضاً...

وبما إن طبيعة الحياة الدنيا هي مادية في الغالب وصراع الحياة والموت الدائر فيها وجب الإنسان للبقاء وحبه للدنيا والشهوات والأموال والبنين التي هي زينة الحياة الدنيا، فإن جميعها من موجبات الغفلة، والله تعالى - يقول في محكم كتابه العزيز: (أَلْهَاكُمُْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) (التكاثر/ 1-2)، فالإنسان بطبعه يميل إلى ما أسلفنا ويكثر منها ويكثر، ولا تملأ عينيه الجائعتين المتعطشتين غير حفنة التراب.

وللغفلة درجات ودرجات فهناك من لا تنفعه نصيحة ولا عبرة ولا دواء لعلته إلا الموت... وعندما يموت يأتيه الخطاب الإلهي: (لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) (ق/ 22)، فالغفلة التي أصابت سمعه وبصره طبعاً على قلبه غشاوة غليظة ما استطاع شيء في الوجود على كثره أن يجلوها عنه فلا النصيحة ولا الإرشاد ولا العبر ولا القصص ولا الآيات ولا الأحاديث جميعها... فالنتيجة أن يبقى سارحاً ساجحاً في بحر مظلم من الجهل والعناد، وقد قال تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...) (الفرقان/ 43).

ومن طبيعة الإنسان الغير مؤمن عندما يكون في خير ونعمة وعافية ينسى الله سبحانه وتعالى، ويتصور بأنه مستغن عن الصلاة والدعاء ولكن عندما تصيبه أدنى مصيبة يتذكر أفعاله وأعماله وأقواله الطالحة، فيلجأ على الفور بالاستغفار والدعاء والله سبحانه وتعالى يصف هذه الحالة بقوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْيَحْيِرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) (الإسراء/ 67).

ونشاهد هذه الحالة أيضاً بكثرة في المجتمع الحديث ولكن بصورة أخرى، مثلاً عندما يستقل الناس الطائرة: فعند الإقلاع الهبوط ترى الجميع في حالة من الخشوع والخضوع والرهبة، والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى - وعندما تنتهي الرحلة بسلام ويقول البعض الحمد لله تراهم يعودون إلى ما كانوا عليه كأن شيئاً لم يكن... والله تعالى يقول: (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا

لَغَا فُلُون) (يونس/ 92)؛ فقط: عندما يصل الإنسان في حياته إلى مشاكل معقدة وحرجة للغاية يبدأ بالبحث عن مخلص ومنجي ولا يجد غير وجه الله الكريم وإلا فحياته كلها غفلة في غفلة...

صادف أن زرت إحدى العوائل الميسورة هنا في كندا وأصابتني الدهشة عندما وجدتهم في سبات عميق بعيدين عن الخالق عز وجل حيث لا صلاة ولا دعاء ولا يعون شيئاً من الإسلام ولا السيرة وكأنهم لم يسمعوا شيئاً عن الدين في حياتهم... وعندما طلبت منهم إحضار القرآن فوجئت بأنّه لا يوجد لديهم قرآن، وبما أن زيارتي لهم كانت من أجل حل مشكلة اعترضتهم، انتهزت الفرصة في نصّهم وإرشادهم، وقلت بأنّ الله سبحانه وتعالى - عندما يحب عبداً - يبتليه ليعود إليه، وأنتم فإنّ الله ابتلاكم لنتبّهوا وتستيقظوا من سباتكم وغفلتكم عنه سبحانه وتعالى. يقول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد/ 11)، فلا بدّ أن تبدعوا بالصلاة وتحاولوا أن تقرأوا بعض الأدعية وتقرأوا القرآن لتكون حياتكم سعيدة مع الله ولا سعادة من دونه...

فهل توجد غفلة أكثر من هذا... مسلمون خلا بينهم من القرآن وإن وجد فهو للحفظ والزينة لا للتعلم والتدبر والقراءة، ولا صلاة يؤدوها وإن أدت فهي لإسقاط الواجب لا أكثر، وقد صدق سبحانه وتعالى حين قال: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) (الروم/ 7).

وقد وصف سبحانه وتعالى الإنسان في سورة العصر وأقسم بالعصر - وهو عصر النبي (ص) وعصر ظهور الإسلام على المجتمع البشري وظهور الحق على الباطل كما ورد في تفسير الميزان حيث قال عز من قائل: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصِّدْقِ) (سورة العصر)، والمراد بالإنسان هو جنس الإنسان أي إن كل إنسان يسير ويتجه نحو الخسر، والخسر هو الذي تفسره الآية الكريمة: (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (الزمر/ 15). ثم يستثنى سبحانه المؤمنين من هذه الخسارة وهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر والذين تكون أعمالهم ترجمان لإيمانهم، إضافة لذلك فهم يتواصون بالحق وباتباعه ويتواصون بالصبر على البلاء والمصائب وقضاء الله وقدره.

إذن أهم أسباب الغفلة هي اتباع الهوى وحب الدنيا والشهوات وكذلك الذين يحبون الشهرة والجاه والمنصب، فهم يزورون الحقائق ويكتمون الحقَّ ويرفعوا إنساناً ويضعوا آخراً وهكذا من الأمور التي تأتي نتيجة للهوى. وقد قال عزّ من قائل: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (الكهف/ 28).

فالمفروض عدم إطاعة من يتخذ هواه سبيلاً يسلكه، لأزّنه سوف لن يحقق إلا الضياع والحسرة والندامة ولأنّ الهوى مخالف للإيمان دائماً وأبداً.

ليس فقط عدم الإيمان بالله سبحانه وتعالى من مصاديق الغفلة، فقد نجد من يؤمن بالله تعالى ولكنه كافر بما جاء به رسوله محمد (ص) من ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليهما السلام - رغم ثبوته لديه بالدليل القاطع والبرهان الساطع والعقل والنقل، وهكذا في باقي الأمور التي يختص فيها وتكون الحجة عليه لاه، فيحاول أن يغفل عنها أو يتغافل ويبقى على باطله ويهيم ويسرح، والله سبحانه وتعالى يقول: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّاهُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف/ 179).

وعلاج الغفلة إنما يكون بالإيمان بالله - عز وجل - ورسوله وكل ما جاء به محمد (ص) وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليهما السلام - والإعراض عن التمسك بالدنيا الفانية وترك الشهوات وأن يكثر الإنسان من ذكر هادم اللذات وهو الموت، فعن حبيب الله محمد بن عبد الله (ص) إنّه قال: أكثروا من ذكر هادم اللذات، فقالوا: وما هادم اللذات يا رسول الله، فقال: ذكر الموت. وكذلك المداومة على ذكر الله عز وجل فعن علي أمير المؤمنين (ع) قال: "بدوام ذكر الله تنجى الغفلة".

وعن رسول الله (ص): "يا أبا ذر هم بالحسنة وإن لم تعملها لكي لا تكتب من الغافلين"، وعن أمير المؤمنين (ع): "استعينوا على بعد المسافة بطول المخالفة، فكم من غافل وثق لغفلته وتعلل بمهلهته فأمل بعيداً وبني مشيداً، فنقص بقرب أجله بعد أمله، فأجأته منيته بانقطاع أمنيته".

وكذلك بمحاسبة النفس فعن علي (ع): "مَن حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر"، وعنه (ع): "أو لستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال شتى، فميت يبكى وآخر يعزى، وصريع مبتلى، وعائد يعود، وآخر بنفسه يجود، وطالب الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وعلى أثر الماضي ما يمضي لباقي".

اللّهمّ اجعل عواقب أمورنا خيرا واجعل ألسنتنا بذكرك لهجة وقلوبنا بك متيمة ولا تكتبنا من الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين.

الكاتب: مونتريال/ كندا

المصدر: المجلة الإيمان/ العدد 81 لسنة 1419هـ